عبد الحسين شعبان والحرث المعرفي في قصة وطن

رأي مستقر ونقدي للمشهد السياسي

عامر حسن فياض
بغداد

عودنا (عبد الحسين شعبان) على ولائم معرفية تفتح شهية العقل ، وآخر هذه الولائم هي وليمة " سلام عادل-الدال والمدلول وما يمكث وما يزول " تلك البانوراما الوثائقية للحركة الشيوعية .

حتى اللحظة يظل تأريخ العراق الحديث والمعاصر أرض بكر تعاني من يباب بحثي، بمعنى آخر أن أطنان الكتب والمؤلفات عن العراق قديمه ووسيطه وحديثه ومعاصره المعاش لا تسدّ استحقاقات كنوز من الأفكار والأحداث والشخوص التي لم تبحث بعد بحثاً حفرياً بمعول علمي موضوعي يقظ. واليباب البحثي المعرفي لتلك الأرض التي اكتنزت بالأفكار والأحداث والإعلام والمدارس يتأتى من غياب أو عدم اكتمال أو نقص نضوج المنهج في دراسة العراق .. إن (عبد الحسين شعبان) كان وما يزال يحرص في كتاباته على المنهج ، فهو لا يكتف بالمعلومة، فحسب، بل يلاحقها ويفككها ويفسرها دون أن يسلّم بها تسليماً متسرعاً تتحكم فيه العشوائية والانتقائية والرغبوية، بل يهتم بالتفسير المنهجي للمعلومة أي أن (شعبان) يُمنهج كتاباته خصوصاً بعد أن نزع ثوب العقائدية والأيديولوجيا لينحاز إلى ركب الموضوعية والحيدة في البحث والكتابة، حيث اخذ يغادر العقيدية المعقدة والأدلجة المنحازة وفي الوقت ذاته ظل مهتديا بالبوصلة الوطنية ومسترشدا بالواقعية النقدية .. الواقعية التي لا تقع نزولا في دائرة الانحياز ولا تهبط صعوداً إلى فضاء المبالغة. وتلك البوصلة وذاك الاسترشاد تلمسناه عند عبد الحسين شعبان في معظم إن لم نقل في كل نتاجاته الـ 69 كتاباً في مختلف فنون المعرفة (قانون –سياسة –أدب-فكر وأديان –ترجمات) بدأ بنشرها منذ عام 1981حتى أصبح اليوم يستحق بجداره تسميته بالمفكر . إن الكتابة عن شخصية رمزية كسلام عادل الذي ختم حياته بالعطاء ببطولة استشهاده الأسطوري ، كما يقول شعبان ، هي كتابة عن قصة وطن .ويضيف شعبان " لا يمكن الكتابة عن سلام عادل دون الكتابة عن جزء مهم وحيوي من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي ، بل وتاريخ العراق المعاصر ، وحين نتحدث عن تاريخ الدولة العراقية الحديثة ، فلا بد أن نتناول تاريخ اليسار العراقي والحركة الشيوعية ولن تمر عليها إلا الخط العريض وليس مروراً عابراً .سلام عادل كانت له إسهامات في الفكر ومنجزات في الممارسة .

وهو كان قد نشأ في بيئة مجنونة بالتاريخ بيد انه استحضر التاريخ لكي يغادره دون أن يسترجعه ليعيش ويعتاش منه .

وحتى شعبان تأثر بمعادلة (الاستحضار والاسترجاع) للتاريخ فكتب عن سلام عادل لكي يستحضر انجازاته وإضافاته لا لكي يسترجع مآسي وتداعيات الحقبات المفخخة بالدماء والقهر والتناحر في المشهد السياسي العراقي الملكي والجمهوري الأول والثاني .

ولان العراق كان وما يزال لا يستحق ماضيه الدامي وحاضره المضطرب بل يستحق مستقبل أفضل فقد تطلع عبد الحسين شعبان في كتابه عن سلام عادل إلى المستقبل فكتب عن العدالة الانتقالية من خلال سردية استشهاد سلام عادل . فبدلا من مشهد الدم بين القوى السياسية الذي كان سائدا زمن سلام عادل يطالب شعبان بالركون إلى مشهد حوار العقل بدلا من مشهد حوار الدم .

منجزات سلام

وتتلخص ابرز منجزات سلام عادل كما يرى عبد الحسين شعبان في :-

- استعادة وحدة الحزب الشيوعي العراقي وتجميع قواه بواسطة البحث عن الجوامع والمشتركات بعيداً عن التخوين والتهميش والتأثيم .
- من سمات سلام عادل القيادية انه صاحب رأي متميز ومستقل ونقدي كما انه لم يكن يعرف المهادنة والتزلّف واسترضاء المسؤولين .
- نظّم سلام عادل الكونفرنس الثاني للحزب عام 1956الذي أنتج معطيات وعطايا ايجابية بمساهمة متميزة منه وأهمها :-
- انتخاب لجنة مركزية جديدة للحزب بعد أن كان اختيارها في الغالب بالتعيين .
- اعتماد الكفاح الجماهيري السلمي أسلوباً في مواجهة سلطات العهد الملكي وطريقا في النضال السياسي .
- التأكيد على أطروحة التحرر الوطني والقومي في البيان الختامي للكونفرنس .
- التأكيد على الأخوة العربية الكوردية وحق التحرر وتقرير المصير والتحالف بين الحركتين التحرريتين العربية والكوردية .
- التحضير لجبهة الاتحاد الوطني 1957وعلاقته المهمة مع شبكة الضباط والجنود مع الإشراف على التنظيم العسكري للحزب والإعداد لثورة 14 تموز 1958 من خلال علاقته مع الضباط الأحرار . وفي هذا الصدد يطالب عبد الحسين شعبان بضرورة العودة إلى قراءة وثائق هذا الكونفرنس لأنها تشوهت فيما بعد أو أهملت .

وعند ذلك فأن عبد الحسين شعبان يحرّضنا كما يحرض غيرنا على مواصلة السير في هذا الدرب، أي درب الحرث المعرفي في قصة وطن اسمه العراق .

□ عميد كلية العلوم السياسية جامعة النهرين

غلاف الكتاب

سلام عادل .. الدال والمدلول

جمال العتّابي
بغداد

صدر مؤخراً عن دار ميزوباتاميا في بغداد(2019) للدكتور عبد الحسين شعبان، مؤلفه الجديد (سلام عادل .. الدال والمدلول وما يمكث وما يزول ، بانوراما وثائقية للحركة الشيوعية)، والدكتور شعبان يسعى دائماً في مشروعه الثقافي والفكري التنويري، إلى كشف الحقائق وتبيان الوقائع ، عبر قراءاته التاريخية بعقلية متفتحة، والوعي بالتاريخ إنما يمثل اداة فعّالة في بناء المستقبل، والقراءة غير الوعي بهذا التاريخ ، الذي يتطلب ذكاء الباحث، وقدرته على الفهم والتحليل، ولا بدّ لهذه المهمة من الارتكاز على منهج علمي في الدراسة . وفي تاريخ العراق المعاصر العديد من الأمثلة التاريخية الملتبسة والتي تقتضي دراستها بهذا المنهج، بحيادية وعلمية ،وبلا ولاءات مسبقة سياسية أو دينية وطائفية ، أو قومية وعرقية ، إن من أهم القواعد الذهبية في قراءة التاريخ ، أننا كلما ابتعدنا عن زمن وقوع الحدث، كلما تسنى لنا النظر إليه باسترخاء أكثر وعقلانية أكبر، بتأمل ومراجعة متأنية، بلا عواطف مشحونة ومتوترة . هذا ما حاوله عبد الحسين شعبان وهو يتناول سردية استشهاد سلام عادل، والعودة إلى الجذر الفكري والسياسي والاجتماعي الذي رافق الصراع الدموي وجانبه (الإنساني) ، إذ كان سلام عادل ومئات القيادات والكفاءات المخلصين ، مدنيين وعسكريين، على اختلاف توجهاتها ، بل ان العراق بمجمله دفع ثمنها باهظاً. للأسف لم يراجع تاريخنا بما في الكفاية كما يقول شعبان، ولم تسلط الأضواء على الأخطاء والنواقص، فلم نلحظ هناك من نقد حقيقي كما يقول شعبان ،والتاريخ مراوغ أو ماكر، حسب هيغل، وعلى شكل مأساة تارة وملهاة تارة أخرى ، حسب ماركس، والنقد فضيلة، ولاسيما في السرديات الثقافية ، وممارسة النقد والنقد الذاتي، إحدى أهم قواعد العمل التنظيمي الحزبي ، ولا بدّ من مراجعة ووقفة عند مفاصله الأساسية ، وخاصة في مواجهة الإخفاقات ، والأزمات السياسية ، وحتى مع النجاح، كما يقول لينين : كل الأحزاب التي هلكت أنما لأنها انساقت إلى الغرور ، ولم ترَ إلّا مصدر قوتها ، وخشيت أن تتكلم عن نواحي ضعفها. يقول شعبان عن كتابه الجديد، إنه إضاءات أولية بحاجة إلى أبحاث ودراسات وقراءات نقدية، ونضيف كذلك، إن الدراسات التي تناولت هذه الشخصية الأسطورية، ما تزال قليلة وقاصرة أن تحيط بهذه التجربة النادرة في تاريخ الحزب الشيوعي العراقي والحركة الوطنية . الدال والمدلول، ثنائية لسانية حديثة لا انفصام بين عراها، وظّفها شعبان بذكاء ومهارة، للإشارة إلى العلاقة بين الرمز والمضمون، وهي علاقة متينة يستحيل الفصل بين طرفيها، فهما نسيج واحد، ملتحمان التحاماً شديداً.

رمز وايقونة

فالدال هو سلام عادل الرمز والأيقونة، والمدلول، الصورة العقلية عن هذا الرمز، أو هو القضية، فسلام عادل الإستثنائي، الشجاعة، الحيوية الفائقة، الكفاءات والمواهب والمبادرات، القدرات التنظيمية، الذكاء والثبات، سلام عادل، معلم الرياضيات والرسم والخط والمسرح، وهو القائد والمناضل والإنسان . سلام عادل ابن مدينة النجف، البيئة الفكرية والثقافية والسياسية والدينية الجدلية ، المدينة لها مذاقها الخاص المعارض ، والجدل فيها ركن أساسي في حياتها، بما فيه الجدل الذي يجري داخل الحوزة الدينية التي جاء والده أحمد الرضي من صلبها، ولم يكن بعيداً عنها.

إن دراسة متأملة لشخصية سلام عادل ،يلمس بعمق هذا الجذر في تكوينه ، وهو جذر إنساني ونبيل ، هذه الخلفيات تتصارع عنده ، بل تمثل مونولوجاً داخلياً بين التقليد والمعاصرة ، وبين القديم والحداثة ، سلام عادل كان يستعيد التراث ويتمثل الجوانب المضيئة فيه فكراً وسلوكاً . جانب من مواقفه السياسية والتنظيمية ، مبعثها وعيه المتقدم وإيمانه المبدئي الثابت وسعة أفقه في إستشراف المستقبل ، مع كل عوامل الإحباط المحيقة بالوضع السياسي العراقي ، التي تحاول الإجهاز على مطامحه وأحلامه ، الخطان (العام والخاص) يتوازيان عنده ويسيران معاً ، ليس مع مطالب شعبه فحسب ، بل مع حقوق الكورد، وحقوق الشعب الفلسطيني ،ان سيرة سلام عادل الشخصية تكاد تختصر في نهايتها سيرة العراق في سعيه الى الحرية .

توصل الدكتور عبد الحسين شعبان الى تحديد سمات الفترة ما بعد تموز1958 التي شهدت صعود الدور الجماهيري للحزب الشيوعي العراقي ،والدور القيادي لسلام عادل فيه ، وفي تقديري إن الدكتور شعبان نجح الى حد كبير في القاء الضوء على اخفاقات الأطراف السياسية جميعا وبدون استثناء ،بعد أن دخلت في صراعات حادة وخطيرة ،إذ اندفع التيار الإستئصالي الإلغائي التهميشي ، وتجاوز ميثاق جبهة الإتحاد الوطني ، كما لم تكن كل القوى مدركة وواعية لما أقدمت عليه ، كما لم تكن بقضها وقضيضها ناضجة، بل عاشت مرحلة مراهقة سياسية ، وتعاني من نقص في وعي قياداتها، ولجأت إلى التمترس والرغبة في كسب الشارع ، ويستنتج شعبان كذلك، أن العمل العلني كان مفاجأة لسلام عادل، دون وجود خبرة في إدارة الدولة، كما أن الجماهير أحدثت نوعاً من الإرباك لدى القيادة، التي تبنّت بعض الشعارات التي فرضها الشارع أحياناً. كذلك كانت تشكيلة قيادة الحزب الشيوعي بعد تموز1958 عاني من انقطاع فرضته ظروف السجن والاختفاء لعدد كبير من أعضاء القيادة ، أو الهروب خارج العراق ، فمواجهة الحياة الجديدة تتطلّب مهارات وخبرات أخرى ، في إدارة العمل المهني والسياسي والثقافي .

سلام عادل

مورد جديد

شكراً لعبد الحسين شعبان الذي أضاف لنا مورداً جديداً في سيرة سلام عادل الخالدة، ومرجعاً تاريخياً يفتح النوافذ على فضاء أوسع للبحث في هذه الشخصية الفذّة، لأنها لم تأخذ حقها من الدراسة والتقييم بعد، بما يوازي دورها المهم في الحركة الوطنية العراقية، وفي الحركة الشيوعية بوجه خاص، وهو ما يجمع عليه رفاقه وأصدقاؤه وحتى خصومه، فسلام عادل الإنسان والمناضل النادر سيظل إيقونة للتاريخ المضيء، وللبسالة في مواجهة الحقد والكراهية السوداء.

منهج بريمر أسس دولة الطوائف

تداعيات كبيرة اصابت المنطقة بعد أسقاط النظام الشمولي في العراق ، على أيدي القوات الامريكية وتحالفهم الدولي سيء الصيت ، يصاحبهُ غَدر ابناء جلدتنا من اخواننا العرب، ودفعَ العراقيون فاتورة خسائر كبيرة على جميع الاصعدة ، البشرية والمادية والبنيَويَّة ، ولم يَعد للعراق هيبة او سيادة تُذكر ، خاصة بعد تَسلمْ الحاكم بريمر مقاليد الحكم، أصدر قرارات مجحفة كانت تعبر بصدق عن عنجهية امريكا ومخاوف اسرائيل من العراق ، فكان حَلْ الجيش العراقي القرار الأكثر تحدياً لأنهاء ملف الأمن بالعراق وجعل البلد يدور في فلك الانفلات الامني وتحول الى غابة صراع سياسي وطائفي لاثبات الوجود والتمدد ، استمر الحال دون معارضة من أحد (بأستثناء من ارتضى ان يكون الوطن اغلى من النفس فأنخرط بفصائل المقاومة المسلحة ضد المحتل) ، تم بعدها تشكيل مجلس الحكم والذي تشكّل وفق رؤى بريمر الذي كان يمثل الحاكم الفعلي للعراق حينئذ ، لذا اسس مجلس الحكم طبقاً لخارطة التقسيم المُعدَّة مسبقاً وفق نسب سكانية تمثل المذاهب والقوميات والمكونات الاخرى بهدف زرع الشرارة الأولى لانهاء التوافق الوطني وزرع الفتنة وألغاء الهوية الوطنية وأحياء الهوية الطائفية والقومية فأصبح العراقي حينها يتحدث بالانتماء الطائفي والقومي اكثر مما يتحدث عن انتمائه الوطني ، وقد نجح بريمر في طمس الهوية الوطنية واحياء هوية الطوائف وفشل ساسة العراق في التصدي لبريمر، عجباً نرى ونسمع اليوم الاتهامات المتبادلة بين المتحالفين في الماضي القريب مع بريمر ليقذف احدهم الأخر بالعمالة لامريكا او لغيرها ، وحتى سياسة الاتهامات هي جزء من سياسة التفرقة التي زرعها المحتل ولسان حالهم يقول لن تقوم للعراقيين قائمة في ظل ساسة غير قادرين على مغادرة احقاد الماضي ، جميعنا يعرف جيداً لو ان العراق بكل طوائفه وقومياته اجتمع بمشروع مقاومة واحد ضد المحتل لكان العراق اليوم سيد العالم ويشار له ولشعبه بالبُنان بالتضحية والإيثار والفداء ضد قوى الظلم والضلالة ، لكن للاسف غلبت المصالح على الثوابت فكان الذي لم نطمح ان يكون ، لم يستمر مجلس الحكم الا عاما واحدا فكان الوليد المشوه (الدستور) ناتج لمخاض معركة طائفية قومية كل منهم وضع مخاوفه من الأخر "شريكه في الوطن " بالوقت الذي لم يتطرق الدستور الى القوات المحتلة وما لها وماعليها وكيفية تعويض العراق عن الدمار الذي لحق به جراء الاحتلال الهمجي ، كان الامريكان قادرين وببساطة اسقاط صدام وانهاء نظام الحكم او قتله لكنهم أثروا على أنفسهم إلا ان يقتلوا العراق ويمحو اثره ودوره الفاعل في المنطقة ، وقابل عنجهيتهم وخبثهم صمت سياسي من قبل كل المشاركين في العملية السياسية بعد الاحتلال بأختلاف مشاربهم ، مما جعل تمادي العدو يتعدى كل الحدود ليصبع الدستور امراً واقعاً ، على الرغم مما يحمله من الغام وتكريس للتقسيم وطمس للهوية الوطنية وأذكاء للهويات الطائفية والقومية ، بما معناه المحتل ولّدَ احتلال من نوع أخر بحاجة الى مقاومة من اجل التغير وإلا سنبقى اسرى الخلافات والاختلافات حول أسس تقاسم الوطن والخيرات وفق استحقاق وانتشار الطوائف والمكونات ، (بما معناه جيب ليل وأخذ عتابة) مثل مايقول المثل الشعبي ، مشكلة بلا نهاية ، كل النهايات السائبة تترك مشاكل كبيرة ونحن فشلنا في احكام النهايات ، والحديث عن بداية تأسيس العملية السياسية قد يحرج كل الاطراف لكن الأهم من ذلك كيف نتخلص من مخلفات الماضي القريب اذا فعلاً تعلمنا من التجربة ان ماتركه المحتل لن يتيح لنا الفرصة بالوصول الى بر الامان بالعراق وشعبه ، بعيداً عن الشعارات الوطنية غير المقرونة بفعل ، نحتاج الى فعل حقيقي ، وهذا الفعل لن يكون مادام بنا من يحابي لهذه الدولة او تلك معتقداً ان الدول تريد الخير للعراق او يروم الاستمرار بمكتسباته تحت ظل عباءة تلك الدول ، حان الوقت للعودة للوطن ، حان الوقت لمحو اثار الماضي بالعمل لا بالقول ، حان الوقت لمن يريد دخول ميدان الوطن مستغفراً عما فات فميدان الوطن يتسع للجميع ، لنحقق مافشلنا في تحقيقه في بداية تشكيل العملية السياسية ، واعتقد حان وقت الاستغفار فالوطن اغلى من المكتسبات والتأريخ سيسجل لأصحاب القول والفعل صفحات ناصعة وسيذكر المتخاذلين، لاسيما ساسة الاقوال بما لايليق ان يقال بمروءة رجل ،

اجعلوا في نصب اعينكم العراق ولاشيء سوى العراق ارضاً وشعباً ستنجحون بتجديد كل ستراتيجيات العمل السياسي المتهالكة والفاشلة بأخرى تضمن للجميع حقوق ومكانة افضل .

كامل كريم الدليمي
بغداد

تلاقفوها لكم .. من الحشيش حتى البغشيش

(كف عن هذيانك هذا ، فان وجع قلمك بات يبكينا وتحرق قلوبنا كلماتك .. واسمعت اذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي) ، هكذا خاطبني احدهم وهو يرد على قراءته لأعمدتي الصحفية التي اوجه النقد فيها للاوضاع العامة السيئة المستشرية في اوصال الجسد العراقي باغلب ان لم يكن جميع مؤسساته الحكومية والمدنية ، حتى اصبحت القيم والوطنية والمسؤولية والنظافة والصالح العام عملة نادرة ومن المفردات الطوباوية عصية التحقيق برغم تبجحنا وتحدثنا من الصغير حتى الكبير عن الفضائل والتعاليم والاخلاق والحرص والشعارات الرنانة والانموذجية والمثل ... وغير ذلك الكثير مما شغل الراس وفاض منه اللسان .. حتى عدت كلماتنا اشبه بالاكذوبة التي لا يشبهها اطلاقا اي شيء على ارض الواقع .

فمدننا خربة وشوارعنا محفرة وبيوتنا مؤجرة مهجرة وثرواتنا منهوبة ونفطنا ملايين البراميل تصدر يوميا ولا نعي منها ما يعزز فرضيت البيع والاستثمار ، خضرواتنا صناعتنا صفر بل الى الحظيظ ، كل شيء مستورد من (الحشيش حتى البغشيش) ، ماتت الامنيات وانتهت صلاحية الشعارات ، فبعد خمسة عشر عاما وجدنا اغلب وزاراتنا تعاني الفساد الاداري وتفشي الرشوة والبطالة المقنعة والفضائيين وانعدام الجودة وصفرية الانتاج والعطاء ورداءة النوعية ... غير ذلك الكثير مما يعد انعكاسا طبيعيا لهيمنة الامية والمحاصصة والحزبية .. وتهميش الكفاءة والاختصاص ..

ما زال المستحوذون على السلطة والمسيطرون على الشارع منذ انعكاسات الحرب الطائفية والقتال على الهوية ودخول السلاح عنوة الى المؤسسات والسيطرة على المقدرات بشعارات رنانة عن طريق الفوز الانتخابي او المحاصصاتي او المسدساتي .. هم هم لا يتغير شيء .. لهم الاموال والمناصب والبيوت والعمارات والمولات والمحطات والسفر والايفاد .. لم يكتفوا بذلك ومن وصل سن التقاعد اخذ يدرب ابناءه وابناء عمومته .. انها لهم ولن يتركوها بعد (تولوها يا بني كاتم ، فو الله لا نزاهة ولا رقابة ولا تفتيش) .. هكذا سمعت احدهم يرد على صاحبه الموظف الذي قال له .. لقد بلغت من العمر والمرض عتيا وها انذا على ابواب القبر وما زلت مستاجرا لا املك من حطام دنياكم الا شرف المواطنة حالي كحال الملايين من العراقيين .. وقد كانوا ينادوني في دائرتي بالمخلص المجتهد المجد، بكلا الدهرين، الدكتاتوري والديمقراطي ولم اتمكن لا في عراقي القديم ولا الجديد من الحصول على مائة متر اسكن بها مع عيالي .. فكيف حصل هؤلاء على كل هذه الثروات الطائلة خلال سنوات وربما شهور .. لقد اخذت تلعب في ايديهم الاموال المنثورة في بلدان الخارج وبنوكها واسواقها وترفها وغوانيها ..

فيما عز علينا ان نحصل على قطعة ارض تكون شاهدا على قبورنا ونحن بحضرة الرب نستغيث ونشتكي من طواغيت الدكتاتورية ولصوص الفوضوية .

حسين الذكر
بغداد

عروض

إنجيل الطفولة العربي

عز الدين عناية
بغداد

يُعدّ أبرز إنجاز لمدرسة النّقد الإنجيلي الحديث، التي انطلقت مع ريتشارد سيمون (-1638 1712م)، وهرمان صامويل ريماروس (-1694 1768) ويوهان دافيد ميخائيليس (-1717 1791) كشْف الإسهام البشري في صياغة الأناجيل والرسائل ونزْع الطابع القداسي الوهمي عنهما. ولكن ينبغي أن نعي أن ما أثبته العلماء، عبر التمحيص والتدقيق والمراجعة، ليس ما تقرّ به الكنيسة، وهو ما خلّف تضاربا بين المنظور العلمي والمنظور الكنسي. كتاب "إنجيل الطفولة السرياني "الذي نتناوله بالعرض، والذي يُرجّح أن أصله يعود إلى القرنين السادس والسابع، نسخته المعروفة هي النسخة العربية المنقولة عن أصول سريانية دُوِّنت في أواخر القرن الثاني عشر، وقد تم اكتشافها خلال العام 1967من قبل المستشرق الألماني هنري سيك. لذلك عادة ما يسمى هذا الإنجيل بـ"إنجيل الطفولة السرياني "أو "إنجيل الطفولة العربي ."الكتاب الذي يعالج هذا السفر يتناول مسألة إشكالية في الدراسات النقدية الإنجيلية، تتمثل في دواعي إضفاء المشروعية على بعض الأسفار وسحبها من غيرها. حيث يعيدنا الكتاب الصادر بالإيطالية خلال العام المنقضي، مع صغر حجمه، إلى اللحظات التأسيسية المبكرة في الدين المسيحي، وإلى الأوضاع الحرجة بشأن مزاعم اكتمال سلسلة الأسفار المكونة للعهد الجديد وعددها الحالي 27 سِفرا، والمروَّجة من قبل مجامع الكنيسة وبابواتها. فهل الأسفار المعتمَدة اليوم هي بالفعل متضمِّنة لتعاليم المسيح (عليه السلام) أم هي رواية من جملة روايات عدة أملتها خيارات لاهوتية ودواع ثقافية وإملاءات سياسية؟

فجوى الانجيل

يتوزع المؤلَّف الإيطالي الذي أعده جوفاني سانتامبروجيو على قسمين: القسم الأول يعرض فيه رأيه في الكتابات "الأبوكريفية/المنحولة" والثاني يتناول فيه فحوى إنجيل الطفولة من حيث مدى توافقه مع الأناجيل السائدة أو تعارضه. وفي القسم الأول الذي يحوز الجانب الأكبر من الكتاب يستعيد جوفاني سانتامبروجيو نقاطا رئيسة في تشكّل الديانة المسيحية، فالإنجيل الذي أتى به المسيح (ع) لم يُدوَّن في عهده، وقد شهد كغيره من الأسفار المقدسة السالفة رحلةً شفويةً ليست بالقصيرة، مثَّلت المعين للأناجيل الأربعة السائدة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) فضلا عمّا نُسب لمن أُطلق عليهم الرّسل من أعمال ورسائل، وإن لم يرَ أصحابها المسيح (ع) ولم يجايلوه. وبين رحيل النبيّ وتدوين نصّه متّسع من الزمن، قد يطول ويقصر بحسب الظروف. إذ يذهب الدارسون إلى أن إنجيل مرقس قد دُوِّن بين عامي 65 و 70 م، وإنجيل متّى ما بين 70و 80 م، وإنجيل لوقا بين 80 و 85 أما إنجيل يوحنّا فقد تم الفراغ من تدوينه حوالي سنة 100م.

ما يُثبِت أن التدوين قد انطلق مع الجيلين الثاني والثالث من أتباع المسيح، وألا وجود لشهود عيان بين من كتبوا الأناجيل الشائعة اليوم، كما أن كتبتها لا يرتقون إلى درجة الحواريين ولا إلى مصاف الأتباع، وأقصى ما يمكن نعتهم به أتباع التابعين. في ظرف بدا فيه التحول بالنص المقدس من الشّفوي إلى المدوّن تعبيرا عن مسعى للتحوّل من مشاعية الإرث الكتابي إلى توكيل صفوة بأمره، تحتكر رمزيته. وقد خلّف ذلك المسار، من الشفوي إلى المدوّن، تراثا إنجيلياً متنوعا عُرف بالأدب الإنجيلي: قسمٌ فيه حظي بـ"صفة القانونية ?"أي المشروعية، وقسمٌ وُسم بـ"سمة الانتحال "أي الوضع، خضعت فيهما عملية التصنيف إلى عوامل عقدية وثقافية وإيديولوجية متداخلة. وللتوضيح عبارة "المنحولة "هي اللفظة العربية المستعمَلة مقابل اللفظة اللاتينية "أبوكريفية-apokry) " phos) في نعت الأسفار غير المعترف بها، والتي تعني في الأصل "المخفية "وليس "المنتحَلة "أو "المنحولة ."إذ عادة ما حامت ثلاثة شكوك حول هذا الصنف من الأدب: الجهل بالمؤلف والجهل بتاريخ التدوين والجهل بمكان التدوين.

يبيّن مُعدّ الكتاب جوفاني سانتامبروجيو أن جذور أزمة "القانوني "و"المنتحَل ?"أو إضفاء المشروعية من عدمها، هي عائدة بالأساس إلى تأخر التدوين. فكان من الطبيعي أن يتداخل الإلهي بالبشري في الذاكرة الجماعية، وأن تتمازج الأخيولة والأمثولة والأرجوزة بالمأثور النبويّ والوحي الإلهي. وقد وصف إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) هذه الحالة التي ألمّت بالعهدين، القديم والجديد، قائلا: كانت العقلية السّامية منذ سالف أزمنتها تميل إلى قول الحكم وإرسال الأمثال، لأنها تمتاز في كلّ أطوارها بالذّكاء والفطنة. وقد كانت هذه الحكم تجري بين طبقات الشّعب وتنتقل بين أفراده يسمعها الصغير من الكبير، ويتعلّمها الأبناء من أفواه الآباء، إلى أن جُمع عدد وافر منها في الأسفار المقدسة. (تاريخ اللّغات السامية، 1929) من جانب آخر يستعرض جوفاني سانتامبروجيو الأسفار "المنحولة ?"مثل الإنجيل بحسب العبرانيين، وإنجيل المصريين، وإنجيل بطرس، وإنجيل مرقيون، وإنجيل توما، وإنجيل الطفولة لتوما، وقصة يوسف النجار، وإنجيل برنابا، ناهيك عن أسفار أخرى مثل أعمال بطرس، وأعمال أندراوس، وأعمال توما، وإنجيل الطفولة العربي، مبرزا مدى قربها من مضامين الأناجيل "القانونية "التي حظيت بقبول المؤسسة الدينية. ولمتسائل أن يسأل ما السر وراء هذه الكثرة في الأسفار المقدسة قبل أن ينزل قرار الفرز؟

تقليد الكتابة

البيّن أن تقليد الكتابة الروحية خلال القرون المسيحية الأولى قد شاع في فلسطين وما جاورها، وقد تميّز بطابع تعليمي عرفاني ما زال البحث التاريخي الراهن يميط اللثام عن خباياه من حين إلى آخر، أبرز ذلك اكتشاف 52 مخطوطة محفوظة في جرار، خلال العام 1945?في نجع حمادي بمصر، ضمّت وثائق تعود إلى بداية القرن الرابع الميلادي، من بينها إنجيل توما وإنجيل فيليبس. وكذلك اكتشاف لفائف البحر الميت التي تعود إلى الحقبة المتراوحة بين القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الأول الميلادي، فضلا عن الإنجيل المنسوب للحواري يهوذا سمعان الإسخريوطي (خائن المسيح كما يُعرف في الأوساط المسيحية) المكتشَف أخيرا وقد عُثر عليه شظايا ببني مزار بالمنيا بمصر عام 1970 تولى دراستها فريق مكون من تيم جول وماس سبيكترو وستيفن إيمل. حيث يشير تحليل البرديات المدوّن عليها بلغةٍ قبطية أخميمية وبأحرف لاتينية، أن تاريخ التدوين يتراوح بين 220و 340م.

وعلى العموم يأتي ذلك التواري للأسفار المنعوتة بالمنحولة ضمن حملة إخفاء منظّمة من الساهرين على الجماعة المسيحية الناشئة، أو جراء قسوة المطاردة الرومانية لأتباع المسيح، وما صاحبَها من تستر وتقيّة. فقد كانت حقبة القرون الأولى حرجة على أتباع السيد المسيح، إلى حدّ أنها عُرفت في التاريخ المسيحي بـ"عصر الشهداء ."يبيّن جوفاني سانتامبروجيو أن تعاليم المسيح في مرحلة الكنيسة البدئية كانت تراثا شائعا بين الجميع، وإنجيل الطفولة إحداها، إلى أن بادر رهط بتدوين تلك المأثورات كلّ حسب هواه، تحت مسوغات التبشير والتعليم، فكانت بمثابة المدونات الشخصية. وما كان لأيّ من هؤلاء المدوِّنين أن يدّعي فرادة نصه أو أصالة جمعه بما يفوق غيره؛ لكن هذا الوضع ما كان ليُرضي كوكبة المتنفّذين لاسيما مع بوادر تشكّل المؤسسة التي ترعى الدين وتصون الإيمان، وكان لابد من إقرار أسفار معتمَدة بين الجماعة الأولى.يُبرز مؤلف الكتاب ألاّ فرق، من منظور تاريخي أدبي، بين نصوص العهد الجديد القانونية والنصوص الأبوكريفية، ولكن ما يميز النوعين أن صنفا "غدا مقبولا" وآخر "غدا مرفوضا "بموجب أجواء التلقي التي أحاطت بالنصوص داخل المؤسسة بعد أن هجرت الجماعة المسيحية الأولى وضع النحلة إلى وضع الكنيسة، التي باتت تضفي الشرعية على النص أو تنزعها عنه وذلك منذ فجر القرن الثاني للميلاد. ففي الوقت الذي مثّلت فيه النصوص الشرعية السند للتعليم والتربية المسيحيين لم تحظ الثانية المستبعدة بذلك، وبقيت خارج المدوَّنة التعليمية المعتمَدة. فمنذ البدء، أدرك آباء الكنيسة خطورة تعدّد الأناجيل، ممّا أملى محاولات للخروج من المأزق، طورا بإضفاء صدقية على بعض النصوص ونزعها عن غيرها، وآخر بمحاولة صياغة أسفار موحَّدة مستخلَصة من النصوص الحائزة على شرعية، كالذي قام به السوري ططيانس حوالي العام 175م، مع ما عُرف بسفر الدياتسرون –Diatessaron أي "الرباعية بحسب المدلول الأصلي للكلمة، وهو أول ملخص قدّم فيه صاحبه الأناجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) ضمن رواية جامعة غير مجزّأة. فمنذ تحول الإنجيل إلى أناجيل، وما رافقه من تقلّص آمال العثور على إنجيل المسيح الحقيقي الكامن خلف الأناجيل، دخلت المسيحية في مأزق، بشأن مشروعية النص المقدّس وصدقيته، فأي الأسفار يحوز تلك الأصالة؟

ضبط قائمة

فكما يورد الكتاب يُنسب إلى البابا جلاسيوس (القرن الخامس) ضبط قائمة الـ 59عنوانا التي أمر بتجنّبها بوصفها نصوص هرطقة. مع ذلك بقيت تلك النصوص متداوَلة بين شرائح واسعة لما تلبّيه من شغف لدى الناس. كما يُنسب لمايكل نيادر سورافينانسيس أول تجميع للأعمال الأبوكريفية في بازل (سنة 1564) تبعته محاولة أخرى أكثر انتظاما ليوهان ألبار فابريسيوس بعنوان: "Codex apocryphus Novi Testa-menti. والمتمعن في مختلف الأناجيل، "القانونية "منها و"المنحولة "يلحظ تمحورها في مضامينها حول شخص المسيح (ع)، لذلك تميز جلها بالإجابة عن سؤاليْ من المسيح ومن أين جاء؟ مع ذلك بقيت منطقة ظلّ أو فراغات بارزة في تلك الأناجيل تمتد على مرحلة الطفولة المبكرة لعيسى (ع)، كان إنجيل الطفولة أبرز المنشغلين بها، حيث تدور أحداث الإصحاحات الأولى في هذا الإنجيل حول المغارة لتتحول الإصحاحات اللاحقة إلى كشف للقدرات الخارقة للمسيح وهو في المهد. كما نلحظ تركيزا في النص على سيكولوجية العذراء مبرزا مدوّن السفر السمو الروحي لمريم، ولعل ذلك ما مهّد للانحراف نحو ما يعرف بالطقس المريمي في المسيحية الراهنة. فضلا عن أن الأناجيل الأبوكريفية تفوق القانونية في توضيح بعض النقاط الغامضة أو الواردة في القانونية مقتضبة. كما ساهمت الأبوكريفية، وإنجيل الطفولة السرياني إحداها، في ترسيخ معتقدات على غرار طقس عبادة العذراء مريم، منذ القرن الخامس الميلادي، في حين لم تقر الكنيسة الكاثوليكية ذلك سوى مع العام .1950

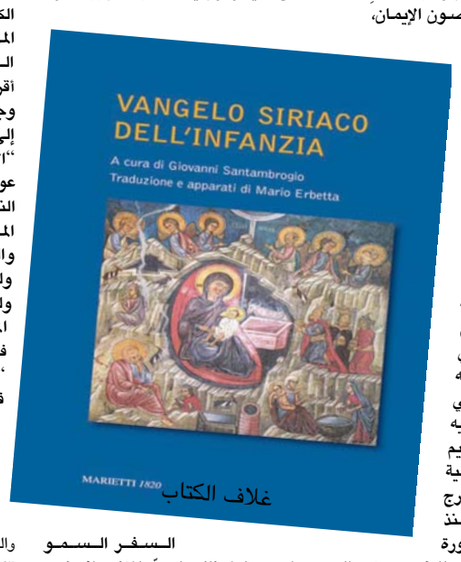

غلاف الكتاب

استقرّ الحال في الرواية الكنسية الرائجة على الاعتقاد أن العهد الجديد وما تضمنه من أناجيل ورسائل، كتبها الله عبر كتبة بشر. لذلك يسود اعتقاد أن النص مشترك البناء، بين مله